علم الاجتماع عند ابن خلدون

بقلم ساطع الحصري

كان معظم الذين درسوا « مقدمة ابن خلدون » الشهيرة من المستشرقين والمؤرخين . والحقيقة ان هذا الكتاب ينبغي ان يدرس بصورة خاصة من قبل علماء الاجتماع ، فهو في اساسه ، بحث في علم الاجتماع يتقدّم جميع الآثار الصادرة في الموضوع نفسه بشوطٍ كبير لأنه قد كتب في القرن الرابع عشر .

وإنما يحق لمؤلف هذا الكتاب العبقري ان يتبوأ مركزاً رفيعاً في تاريخ الفكر الانساني عامة ، وتاريخ علم الاجتماع خاصة ، بصفته مؤسس علم الاجتماع ، او بعبارة اوضح ، بصفته المؤلف الاول في هذا العلم .

ألقى الاستاذ ساطع الحصري بياناً بالفرنسية في المؤتمر الاممي الخامس عشر الذي عقد مؤخراً في استانبول عن « فلسفة علم الاجتماع عند ابن خلدون » رأت « الآداب » ان تترجمه عن الفرنسية وتنقله الى قرائها لأهميته .

— ١ —

اعتبر بعض المؤلفين مقدمة ابن خلدون نوعاً من الموسوعات ، واعتبرها آخرون دراسة في النقد التاريخي ، بينما عدّها سواهم فلسفةً للتاريخ او تاريخاً للحضارة . ورأى فيها بعضهم ، اخيراً ، فلسفة اجتماعية .

والواقع ان بوسعنا ان نجد في تنوّع المواضيع المطروقة والمدروسة في هذه المقدمة ما يبرّر ، الى حد ما ، اطلاق كل واحدة من هذه التسميات عليها . ولكننا حين ننظر بشمول الى مجموع هذه الموضوعات ، دون ان نهمل الروح العامة التي تحركها وتوجهها ، ندرك انها تشكل مدخلا اجتماعياً الى التاريخ .

صحيح ان ابن خلدون قد قدّم مؤلفه هذا بوصفه الكتاب الاول من تاريخ عام يتألف من سبعة اجزاء ضخمة ؛ وصحيح كذلك انه توصّل الى ابحاثه وهو يفلسف حوادث التاريخ ويبحث عن طريقة للنقد التاريخي ؛ ولكن ليس اقل صحة من ذلك انه عدّه علماً جديداً قائماً بذاته ، أو قل انه نسيج وحده ؛ وقد نصّ على ذلك صراحة ، بل هو قد وسم هذا العلم باسم خاص ، فدعاه « علم العمران » وهو يعني « علم المجتمع الانساني » .

وينبغي لي ، بهذا الصدد ، ان اذكر ملاحظة هامة جداً : فان المعنى الحالي لكلمة « عمران » التي اطلقها مؤلفنا على العلم الجديد الذي اخترعه ، يقترب من معنى كلمة « حضارة » ولكنّ معناها الأصلي كان أوسع وأشمل : فقد كان يقترب بالاحرى من معنى الاسكان والتجمع بصورة عامة ؛ ولا ريب في ان ابن خلدون قد استعمل الكلمة بهذا المعنى الأخير ، وقد ذكرها اكثر من مرة كمرادف لكلمة « اجتماع » التي تعني في أيامنا ايضاً « التجمُّع والتألُّف » ، ثم انه قد عُني بان يعرّف ما يقصد اليه من هذه الكلمة بهذه العبارات الدقيقة :

« العمران هو التساكن والتنازل في مصر أو حلّة ، للانس بالعشير واقتضاء الحاجات » .

لم يلاحظ البارون « دوسلان » — خلال ترجمته للمقدمة — التطور الذي طرأ على معنى الكلمة المذكورة عبر القرون الماضية ، فترجمها بـ« حضارة » بصورة عامة ، وفقاً لمعناها الحالي ، وكانت هذه غلطة كانت لها نتيجة مؤسفة : ذلك انها حجبت المقدمة ، وصرفت انتباه علماء الاجتماع عنها لبضعة عقود من السنين .

وجدير بالملاحظة ، من جهة اخرى ، ان « دوسلان » نفسه اضطر اكثر من مرة لأن يعدل عن كلمة « حضارة » ويترجم عبارة ابن خلدون بكلمات اخرى ، من مثل « اجتماع » و « مجتمع » و « مجتمع انساني »[1] . ولنقرأ عنوان الكتاب الاول ، في ترجمة « دوسلان » نفسه : « في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العلل والاسباب . »[2]

ومما تجدر ملاحظته في هذا الشأن ان الكلمة العربية التي

(١) انظر ج١ ص٧١ و٨٤ ، وج٢ ص١٤٠

(٢) ج١ ص٧١ . De la société humaine et des phénomènes qu'elle présente, tels que la vie nomade, la vie sédentaire; la domination, les moyens de gagner sa subsistance, la science et des arts.—Indication des causes qui ont amené ces resultats.

ترجمها دوسلان هنا بعبارة « المجتمع الانساني » هي نفس الكلمة التي استعملها ابن خلدون ليسمّي العلم الذي فكّر به وخلقه : إنها كلمة « عمران » .

وهكذا يكون العلم الذي يحدثنا عنه ابن خلدون هو « علم المجتمع الانساني » ، هو « علم الاجتماع » بكلمة واحدة. وليست المقدمة الا عرضاً لمبادىء هذا العلم وأصوله ، كما تصورهـــا وشرحها مفكرنا الكبير قبل ٥٧٥ عاماً .

— ٢ —

إذا درسنا المقدمة ، دراسة تعمق ، توصلنا الى تثبيت هذه الحقيقة التي لا مجال للجدال فيها. لقد فكر ابن خلدون بان يجعل من « المجتمع الانساني » موضوع علم خاص ؛ وقد اندفع في توسيع هذه هذه الفكرة وتحقيقها بقدر ما كانت تسمح له معلوماته العامة وملاحظاته وتجاربه الشخصية .

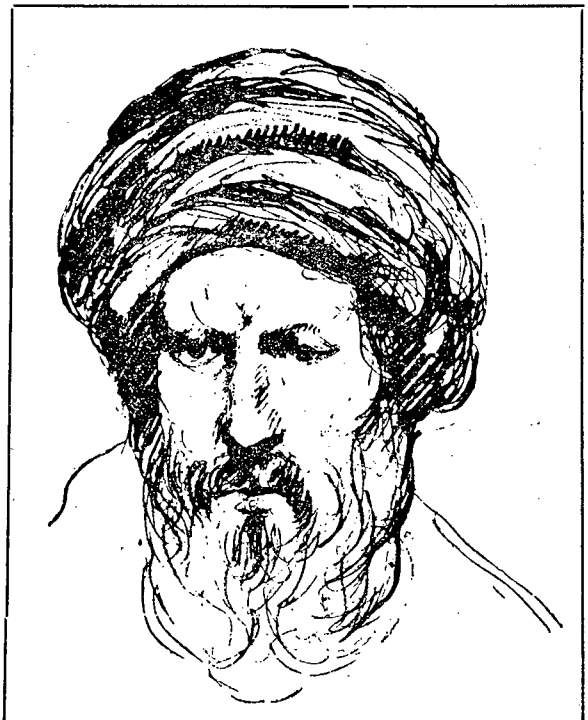

ابن خلدون كما تخيله جبران خليل جبران

دراسه حياة الانسان الاجتماعية، عبر مظاهرها المختلفة ، مع الحوادث التي تنتج عنها، والمؤسسات التي تتولد منها ، وبحث اسباب تلك الحوادث واصول هذه المؤسسات... تلك هي المهمة التي اخذها ابن خلدون عـــلى عاتقه لتأسيس العلم الجديد الذي فكر به ، وهو يكتب ترجمته .

وقد ادرك ابن خلدون ادراكاً تاماً التنوع العظيم في مظاهر الحيـاة الاجتماعية ، وقدّر تقديراً صحيحاً مدى شمول مواضيع العـلم الجديد. وليس من المبالغ فيه القول بان ميدان القضايا الاجتماعية التي درسها ابن خلدون كان أوسع من الذي راده، بعد اربعة قرون ونصف، اوغست كونت الذي يُعدّ عادة مؤسس علم الاجتماع .

ونظرة واحدة الى المقدمة تكفي للاقتناع بذلك .

لقد قسم ابن خلدون مقدمته ستة أبواب رئيسية : الاول يبحث في الاجتماع البشري بصورة عامة ، فهو إذن دراسة في علم الاجتماع العام؛ والثاني يدرس اجتماعيات البدوي ؛ والثالث درس في علم الاجتماع السياسي يضم نظرات هامة جداً في مالية الدول ؛ والرابع يبحث في المـــدن والأمصار ويبحث في اجتماعيات حياة الحضر؛ والخامس يؤلف علم الاجتماع الاقتصادي. اما الفصل السادس فيعالج العلوم والتعليم ويشتمل عـلى كثير من النظرات التى تدخل في حقل علم الاجتماع الأدبي .

وقد درس ابن خلدون في الفصول الكثيرة التي يضمها كل من هذه الابواب طائفةً كبيرة من الأحداث والواقعـــات الاجتماعية ، بروح دائمة من النزاهـة والتجرد دون ان ينجرف بتيار الابحاث الانشائية لغايات عملية . وقد حاول ان يكتشف أسباب هذه الأحداث الاجتماعية ويستخلص منها قوانين «تزاحمها وتعاقبها » تقوده في ذلك دائماً روح مشبعة بحتمية علمية شديدة الوضوح : فهو يتحدث ، دون انقطاع ، عن « طبيعة الأشياء » بصورة عامة ، وعن طبيعة الأشيـاء « الاجتماعية » بصورة خاصة ؛ وهو يعلل كثيراً من الظواهر الاجتماعية بالرجوع إلى «طبيعة الأشياء وترتيبها».

— ٣ —

ومن المعروف ان ابن خلدون قد كتب مقدمته وهو في عزلة، خلال الوحدة التي فرضها على نفسه بعد حياة سياسية طويلة مليئـــة بالعواصف. ولكنه عاد إلى الحياة العامة بعد هذه العزلة التي استمرت اربعـة اعوام ، وعاش زهاء ربع قرن ؛ وفي هـذا القسم الأخير من حياته، كان يضيف دائماً الى كتابه فقرات جديدة، وحتى فصولاً جديدة ؛ مما أدى إلى اثقـال الكتاب ، في بعض أقسامه ، بتفاصيل زائدة لا طـائل تحتها . وهذا ما يبدو بوضوح في القسم السادس من المقدمة بوجه خاص حيث اخذت بعض الفصول شكل مقالات موسوعية أو أبحاث كتبية . ولكن ينبغي أن نلاحظ ان هذه الفصول الكثيرة التفاصيل نفسها لا تخلو من ملاحظات ونظرات اجتماعيـة ذات أهمية كبيرة . وإني أورد هنا مثلاً واحداً ذا دلالة واضحة :

لقد خصص ابن خلدون كثيراً من الصفحات — في الباب السادس من كتابه — لعلم اللاهوت وعلم الفقه الاسلاميين. وقد خطّ فيهـه الخطوط الرئيسية للمدارس والمذاهب التي قسمت المسلمين في هذا الموضوع . وعـــدّد أهم الكتب التي تعرض

مبادىء كل من هذه المدارس والمذاهب، ثم أعطى أخيراً بعض المعلومات العامة عن التوزع الجغرافي لهذه المذاهب . وهو حين يلاحظ أن مذهب الامام مالك قد انتشر في المغرب ، بينما لم يجد مجالاً للانتشار في العراق ، يأخذ في تحري أسباب هذا الوضع :

فهو يلاحظ ، أول الأمر ، ان مالكاً يعود أصله إلى الحجاز وانه عاش في المدينة فوضع فيها مذهبه وأشاعه بين الناس؛ ومن أجل ذلك أصبحت هذه المدينة بؤرة المالكية .

ثم يلاحظ ، من جهة اخرى ، تأثير الحج في هذا المضمار : في كل عام يتوجه جمع كبير من سكان المغرب ، بينهم عدد وافر من الفقهاء والطلاب، إلى مكة لتأدية فريضة الحج؛ فيمرون بالمدينة — في طريقهم — ويتاح لهم الوقوف على المذهب المالكي فيقعون تحت تأثيره ؛ ولما كانوا لا يمضون في رحلتهم إلى أبعد من ذلك ، إلا في حالات نادرة ، فانهم يظلون على جهل تام بسائر المذاهب التي كانت قد تكوّنت في الأقطار الاسلامية الأخرى . من أجل ذلك أصبح المغرب مالكياً .

ولكن مؤلفنا لا يقف عند هذا الشرح الأول ، وإنما يمضي إلى أبعد من ذلك في تحري الأسباب : فهو يلاحظ ان البناء الاجتماعي أو البنية الاجتماعية في بلاد المغرب تشبه كثيراً البنية الاجتماعية السائدة في الحجاز ، من حيث غلبة حياة القبائل الرحّل ، وحتى حول المدن . وهذا ما جعل المذهب المالكي الذي تكوّن في المدينة — آخذاً بعين الاعتبار متطلبات هذه الحياة الاجتماعية — أكثر استجابة لحاجات المغرب ، من المذاهب التي تكوّنت في بيئات حضرية حيث الحياة أشد تعقداً.

ولكن لندرك أهمية هذا الشرح ، ينبغي أن نذكر ان ابن خلدون نفسه كان مالكياً ؛ وهو قد تولى تعليم هذا المذهب فيما بعد بالقاهرة ، وتسلم وظيفة القاضي الأكبر للمالكية في مصر . ومن هنا نرى أن تعلقه الشخصي بهذا المذهب لم يمنعه من أن يبقى تجاهه في موقف الباحث العلمي المجرد عن النزعات الذاتية ؛ وأن يتحرّى العوامل الطبيعية والأرضية حتى في تعليل هذا الأمر الذي يتصل اتصالاً وثيقاً بالأمور الدينية والسماوية .

— ٤ —

لا شك في ان علم الاجتماع الذي وضعه ابن خلدون ليس كاملاً ؛ ثم إنه ليس خالياً من الأخطاء ولكن ينبغي ألا يغرب عن البال أنه وضع في القرن الرابع عشر . أي ٤٥٠ عاماً قبل « محاضرات الفلسفة الوضعية » لأوغست كونت .

ثم إن الجدير بالملاحظة أن ابن خلدون نفسه لا يدّعي أنه استنفد وعالج جميع القضايا التي ينبغي أن يتناولها العلم الذي وضعه ، بالرغم من الحماسة والرضى اللذين شعر بهما ، وبالرغم من الاعتزاز الحارّ الذي أظهره بخلق علم في مثل هذه الأهمية والجدّة ؛ وقد صرّح في نهاية كتابه بان «مستنبط علم من العلوم لا يُطلب منه أن يستنفد جميع مواضيعه » وأن العلوم بالاجمال لا يمكن أن تبلغ الكمال إلا تدريجياً ، بتتابع العلماء الذين يكرسون لها نشاطهم وأبحاثهم.

وفضلاً عن ذلك ، فانه في نهاية بحثه التمهيدي عبّر عن أمله بان يجد عمله من يتابعه — ويصحح أخطاءه ويسدّ نقائصه — . وقال بصراحة ، ودون ما تواضع ، إنه سيظل له الفضل « لأنه نهج له السبيل وأوضح له الطريق » .

ولكن أمل ابن خلدون في هذا الموضوع لم يتحقق مع الأسف ، فلم يقم له حلفاء جديرون باتمام عمله، لا في الشرق ولا في الغرب. لأن العالم العربي كان قد وصل إلى حقبة من الانحطاط الفكري والانحلال السياسي ، فلم يستطع أن ينجب خلفاء أكفاء لهذا المفكر العبقري . أما العالم الاوربي فكان قد بلغ فجر النهضة ، وكان قد غرف طوال بضعة قرون من كنوز الشرق الفكرية ، بان ترجم عدداً كبيراً من الكتب العربية ، وكان قد سلك طريق الاستقلال المادي والمعنوي بالنسبة إلى ذلك العالم ، فلم يكن ليهتم بما كان يجري هناك .

ولهذا ظل كتاب ابن خلدون مجهولاً تماماً من قبل الاوربيين حتى القرن التاسع عشر ، فنشأ علم الاجتماع نشأة جديدة مستقلة عن الخطط الموضوعة في مقدمة ابن خلدون وعن المبادىء المقررة فيها. ولا ريب أنه كان في ذلك ضرر كبير بتقدم علم الاجتماع: فلو أن آراء المفكر العربي الكبير ونظرياته الاجتماعية كانت معروفة من قبل مفكري القرن الثامن عشر في اوربا، فان العلوم الاجتماعية التي كانت قد اخذت تتكون في ذلك الحين كانت تزوّدت منذ نشأتها بروح خيّرة من علم الاجتماع. ولما شهد القرن التاسع عشر المنازعات والمناقشات التي قامت بين انصار السلطان العام لعلم الاجتماع وبين المدافعين عن استقلال العلوم الاجتماعية الخاصة .

ومهما يكن من أمر، فيجب الاعتراف اليوم بان مفكراً عربياً كبيراً قد وضع وخلق علماً اجتماعياً كاملاً في القرن الرابع عشر ، وان هذا المفكر العبقري قد أظهر في مقدمته اتساعاً عظيماً في المفهوم الاجتماعي مع روح من التجرد العلمي لم

يُضاهَ في اوربا إلا في القرن التاسع عشر .

— ٥ —

وبهذه المناسبة أعتقد انه يجب ان نحيي البروفسور غاستون بوتول للخدمة التي أدّاها لذكرى ابن خلدون بسهره على اعادة طبع الترجمة للمقدمة ، وباصداره كرّاساً عن الفلسفة الاجتماعية لهذا المفكر الكبير وبحرصه اخيراً على الاستشهاد بنصوص من المقدمة في دراسته عن علم الاجتماع وفي كتابه الأخير عن الحروب . على اني اسمح لنفسي بان اوجه اليه بعض الملاحظات النقدية على بعض احكام قرأتها في مؤلفه « ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية ».

نقرأ في احد فصول هذا الكتاب ما يلي :

« كانت معرفة ابن خلدون بالتاريخ القديم معرفة ضعيفة جداً ، وإن ما يفهمه من ذلك التاريخ يلحق أحياناً بسذاجة الأساطير الشعبية : فهو يعزو بناء العمارات الرومانية الى عمالقة » (ص ١٨) .

والقسم الأول من هذا الحكم مطابق للحقيقة ، ولكن القسم الثاني مغلوط تماماً : فان ابن خلدون لم يَعْزُ مطلقاً بناء العمارات الرومانية الى عمالقة . والواقع انه ذكر في اربعة فصول من المقدمة الأساطير الشعبية التي كانت سائرة في هذا الموضوع ؛ ولكنه لم يذكرها الا ليفنّدها ويظهر خطأها ، وقد وصف هذه الأساطير بانها « خرافات عجيبة » و « أحكام اعتباطية قائمة على قصص الرواة » و « رأي عجيب ليس له دليل قائم على طبيعة الأشياء ، ولا برهان مستند الى تحكيم العقل »[١]

وهكذا نرى ان ابن خلدون يستعرض هذه الخرافات ليظهر خطأها وتزييفها وليبحث عن اصولها النفسية ؛ وهو يمضي فيعدد الوسائل التي اتاحت بناء تلك العمارات الفخمة التي تشبه اهرام مصر وقناطر الرومان — وهو ينصّ على ان هذه العمارات قد تيسر بناؤها :

١ — لانهم لجأوا الى استعمال المحول والأدوات التي تضاعف القوة الانسانية .

٢ — ولأن سلطان الامم التي قامت على بنائها مكّنها من حشد عدد كبير من العمال لتشغيلهم .

٣ — ولأن اعمال البناء اخيراً قد استمرت احياناً وقتاً طويلا استغرق حكم عدد من الملوك والحكام .[٢]

ويتابع فيقول ان الخيال الشعبي المبهور بعظمة هذه العمارات والجاهل لجميع العوامل والوسائل المذكورة ظن ان الذين بنوها عمالقه ، ذوو قامات هائلة وقوة خارقة للعادة .

وبالاختصار أستطيع ان اؤكد انه ليس ثمة كلمة او عبارة في المقدمة تبرر التهمة الخطيرة التي وجهها الكتاب المذكور لابن خلدون . ويظهر ان البروفسور بوتول عندما قرأ عرض تلك الأساطير ، لم يكلف نفسه مؤونة متابعة الفصل حتى النهاية ، ليطلع على ما يلي ذلك البحث من ردود وتفنيدات .

وبعد توضيح هذه النقطة ، أراني مضطراً الى سرد ملاحظة ثانية تتعلق بالكتاب نفسه :

ان البروفسور بوتول يصف ابن خلدون بانه قدري ؛ ويتحدث في تسعة مواضع من كتابه عن روح القدرية التي تستحوذ على فكره . ولكن من يدرس المقدمة دون ما تغرض يلاحظ ان المؤلف لم يقل مطلقاً : « لقد وقع هذا ، لأنه كان مكتوباً ومقدراً .. » ولكنه يقول دائماً : « يحدث هذا بقوة الأشياء واستعدادها الطبيعي » واعتقد انه ليس من العدل وصف هذا الموقف الفكري والفلسفي بالقدرية . وليس موقف ابن خلدون في هذا الصدد إلا كمواقف هيبوليت تين او إميل دير كيم ، انه موقف الحتمية العلمية ، لا موقف القدرية . قد يقال ان هذه الحتمية شديدة الصرامة ، ولكنه لا يحق لأحد ان يقول انها قدرية .

واني أختم موضوعي برأيٍ لأوغست كونت الذي اعتاد الناس ان يطلقوا عليه لقب مؤسس علم الاجتماع :

فمن المعروف جيداً ان هذا الفيلسوف الكبير ، في محاضراته عن الفلسفة الوضعية يدّعي ، وهو يقيم سلّم العلوم العامة ويذكر ان علم الاجتماع يأتي في آخر سلسلة العلوم ، ان علم الاجتماع هذا لم يكن من الممكن ان يُخلق قبل القرن التاسع عشر ، لان علم البيولوجيا الذي يسبقه في هذا السلّم لم يكن بعد قد قام .

واني على يقين بان أوغست كونت لو أتاح له الحظ ان يطلع على مقدمة المفكر العربي الكبير ، لعدل عن هذا الرأي : فان كون ابن خلدون قد استطاع ان يضع مقدمته في القرن الرابع عشر ، قبل قيام علم البيولوجيا بل قبل قيام علم الفيزياء نفسه ، كافٍ وحده لهدم نظرية اوغست كونت في هذا الصدد .

ساطع الحصري

(١) انظر ترجمة دوسلان ، ص ٢٤٤ و ٣٦٢

(٢) نظر المقدمة : الجزء الأول ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٢ ، والجزء الثاني ص ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٣٦١ ، ٣٧٦ .